هوامش

في بهو إحدى كنائس لندن، يُعرض عمل يحمل عنوان «الجماعة»، أنجزته الفنانة البريطانية إيس ديفلين. تركيب ضخم مكوّن من عشرات الوجوه للاجئين أو مهاجرين مقيمين في المملكة المتحدة

العامل المشترك بين هؤلاء جميعاً أنهم جاؤوا إلى هنا فراراً من واقع صعب (موقع مفوضية اللاجئين)

إيس ديفلين

ألّا ينتقي الناس تعاطفهم مع اللاجئين

ريم ياسر

تقول الفنانة البريطانية، إيس ديفلين (1971)، إنها تأثرت كثيراً بروح الكرم والمودة التي أظهرها البريطانيون عام 2022، سواء رسمياً أو شعبياً، تجاه الفارين من الحرب الروسية الأوكرانية. وعلى الرغم من تأثرها بهذه المشاعر، فإن الفنانة (Es Devlin) تُدرك جيداً، كما تقول، إن هذه المودة البالغة كانت قاصرة على الأوكرانيين وحدهم، ولم تكن بهذا القدر من السخاء تجاه النازحين الآخرين الذين فروا في ظروف مماثلة من دول مثل سورية والسودان وأفغانستان واليمن وإريتريا والكونغو وأوغندا.

تتساءل إيس ديفلين عن السبب، فلا ترى إجابة غير هذه التحيزات المدفوعة بالأفكار النمطية التي تحكم علاقة الناس تجاه الآخرين. لا تقتصر هذه التحيزات، كما تقول الفنانة، على العرق والثقافة فقط، بل تمتد لتطاول لون البشرة والعقيدة وغيرها من الاختلافات. من أجل فهم أفضل لهذه التحيزات وتجاوزها، تعاونت ديفلين مع مفوضية الأمم المتحدة لشؤون اللاجئين للعمل مع مجموعة من النازحين المقيمين في بريطانيا. تُرجم هذا التعاون، أخيراً، إلى عمل فني يحتفي بالنازحين من أعراق وثقافات مُختلفة، اختاروا العاصمة البريطانية مقرّاً لإقامتهم الدائمة. يُعرض العمل في بهو إحدى الكنائس في لندن، التي يعود تاريخ بنائها إلى القرن الثامن عشر. تقدّم الفنانة هذا العمل تحت عنوان «الجماعة» (CONGREGATION)، وهو عبارة عن تركيب ضخم مكون من عشرات الصور المرسومة بخامتي الباستيل والفحم لوجوه هؤلاء الأفراد الذين شاركوا ديفلين في مشروعها. ينتمي المشاركون إلى بلدان مختلفة عبر العالم، من سورية والسودان إلى أوكرانيا وأفغانستان وإيران والعراق وليبيا وفلسطين وباكستان والهند.

كانت الفنانة تبدأ برسم كل صورة من دون علم بقصة الشخص الذي يجلس أمامها، إذ لم تكن تعرف سوى اسمه فقط. تقول ديفلين إنها كانت ترسم شخصاً غريباً عنها تماماً، لكنها لم تكن ترسم مجرد صورة لهذا الشخص فقط، بل ترسم كذلك الافتراضات التي تكتسبها عند رؤيته، والمدفوعة غالباً بتحيزاتها الثقافية الخاصة. بعد انتهاء الوقت المخصص لوضع الخطوط الرئيسية، كانت الفنانة تواظب على إجراء حوار مع صاحب الصورة لتتعرف إلى قصته: كيف وصل إلى لندن؟ هل كان طفلاً أم بالغاً؟ ما هي المخاطر التي تعرض لها والتحديات التي واجهته أثناء الهجرة؟ تستأنف الفنانة العمل على الصورة بعد مغادرة صاحبها، فتتحول قصته إلى دليل ومرشد لخطوطها. حينها فقط، تتخلّص من تحيزها اللاواعي وافتراضاتها حول هوية كل شخص وانتمائه.

تعمدت ديفلين كذلك أن ترسم الأشخاص وهم في وضع المواجهة، فقد أرادت أن تظل الوجوه شاخصة مباشرة نحو المشاهد. تقول ديفلين إن النظرة المباشرة يمكنها أن تشي بكثير من المعاني، فهي قد تدل على التحدي، كما يمكن أن تشير كذلك إلى المحبة والعاطفة والألفة. أرادت الفنانة التأكيد من خلال النظرة المباشرة على المعاني الإيجابية، وسعت كما تقول إلى تجاوز حائط العزلة والجمود بين الصورة والمتأمل لها. إنهم أشخاص يمكن أن تلتقيهم في أي مكان، لكل واحد منهم حكاية وقصة مختلفة. تقول ديفلين إن العامل المشترك بين هؤلاء جميعاً أنهم جاؤوا إلى هنا فراراً من واقع صعب وخطير. تعاونت الفنانة في العمل على هذا التجهيز مع فنانين آخرين ومتخصصين في الغرافيك والتحريك والموسيقى، فمثلت تلك الرسوم محوراً لهذا العمل التجهيزي الضخم المتعدد الوسائط. في هذه الصور التي رسمتها ديفلين، يظهر جميع الأشخاص وهم يحملون صندوقاً فارغاً في منتصف الصورة تقريباً. يأتي دور هذه المساحة الفارغة بعد تركيب الصور إلى جوار بعضها، إذ يعمل المتخصّصون في مجال التحريك والغرافيك على توظيف هذه المساحة الفارغة لعرض مجموعة من الصور المتحركة. ترى ديفلين أن العمل النهائي هو نتيجة لجهد مشترك وحوار بين الفنانين المُشاركين والأشخاص الذين قبلوا الجلوس للرسم. أما عن اختيارها للألوان المحايدة، فتقول الفنانة إنها تأتي تأثّراً بأعمال البورتريه الخاصة بلوسيان فرويد والصور المرسومة بالفحم لفرانك أورباخ. أرادت ديفلين أن يكتسب العمل بعداً محلياً مرتبطاً بثقافة المكان، فهو لا يُعبر عن جميع اللاجئين في العالم، بل يخص هؤلاء المقيمين في هذه المدينة، ويُعبر عن لندن كمدينة متنوعة الثقافات. أثنت الرئيسة التنفيذية لمفوضية الأمم المتحدة لشؤون اللاجئين في المملكة المتحدة، إيما تشيرنيافسكي، على هذا العمل، وأبدت امتنانها للفنانة البريطانية لالتزامها وتفانيها تجاه كل أولئك الذين أجبروا على الفرار من ديارهم بسبب الحرب والعنف والاضطهاد. ترى تشيرنيافسكي أن عمل ديفلين يُعد فرصة حقيقية لهؤلاء اللاجئين لمشاركة قصصهم، ما من شأنه أن يلهم المزيد من الدعم والتضامن مع اللاجئين في بلادها وحول العالم.

باختصار

كانت الفنانة تبدأ برسم كل صورة من دون علم بقصة الشخص الذي يجلس أمامها، إذ لم تكن تعرف سوى اسمه فقط

■■■

بعد انتهاء الوقت المخصص لوضع الخطوط الرئيسية، كانت الفنانة تواظب على إجراء حوار مع صاحب الصورة لتتعرف إلى قصته

■■■

تعمدت ديفلين أن ترسم الأشخاص وهم في وضع المواجهة، فقد أرادت أن تظل الوجوه شاخصة مباشرة نحو المشاهد

وأخيراً

مخيّم جباليا... ذاكرة الأحرار

سما حسن

مرّ وقت طويل قبل أن أدخل مخيّم جباليا، الذي تخيّلته مكاناً أسطورياً لا يُرى إلّا في القصص والحكايات، وذلك لأنّ كائناً أسطورياً كان يزورنا لماماً من عمق هذا المخيم، وحيث كنّا نعيش في جنوب قطاع غزّة، وتحديداً في مدينة خانيونس، فقد كانت عمّتي تأتي محمّلة بخيراتٍ لا يمكن للإنسان أن ينسى لذّة طعمها، وبساطة مكوّناتها، وهي تحمل بعضها في سلّة من القشّ فوق رأسها، وتحمل الباقي في أكياسٍ من الخيش بين يديها الاثنتين، وتمشي بسرعة وقوّة، من دون أن تفلت السلّة الضّخمة من فوق رأسها، حتّى إذا ما وصلت حيث يجلس جدّي (أبوها) أمام باب بيتنا الواسع الجميل المبني من الإسمنت، والمزيّن بحديقة مُنسَّقة، تقف لتضع حملها أمامه، وتنحني لتقبّل يده، ثمّ جبينه، وتبدأ مهمّتها مثل كلّ مرّة بأن تجلس إلى جواره، ونجلس حولهما نحن الأحفاد الصغار، وكأنّ على رؤوسنا الطير، لنستمع إلى حكايات المخيّم وأخباره، حتّى بتنا نعرف أسماء جيرانها، وملامح الحارة الضّيقة، ومشكلة المياه التي تتسرّب وتُغرق فراش أطفالها من بيت الجيران الآيل إلى السقوط، فإذا ما كبرنا قليلاً، بدأت تشكو لجدّي بتخوّفٍ قد تحقّق، من إفراغ بعض بيوت المخيّم، ونقلهم إلى منطقة قريبة ضمن مشروع سكني أقامته الإدارة المدنية للاحتلال بمحاذاة المخيّم للتقليل من كثافة السكّان فيه هدفاً ظاهراً، لكنّ الهدف الباطن، الذي لم يتحدّث عنه أحد، فكان التقليل من الصورة العامّة للّجوء والتجذّر والتمسّك بذاكرة الأرض التي تركها أهل المخيّم في العام 1948، وحيث استقرّوا هنا في مخيّم أقامته وكالة غوث وتشغيل اللاجئين الفلسطينيين (أونروا) بالقرب من بلدة جباليا، ولذلك استمدّ منها اسمه.

دخلت مخيّم جباليا في طفولتي للمرّة الأولى والأخيرة، قبل أن تنتقل عائلة عمّتي إلى مشروع إسكاني قريب، وأصبحت ذكرياتي عن المخيّم، ذلك المكان الأسطوري كما تخيّلته، هي زيارة لعدّة أيام أمضيتها في عالم غريب جاذب، يعبق بهواء مختلف، وبأناس مختلفين، يشبه بعضهم بعضاً، وقريب بعضهم من بعض، وبيوتهم متآكلة وضيّقة، ولكنّها تتّسع للجميع، لأنّها غالباً ما تكون مفتوحةً ولا تُغلَق، ولا يمكن أن تعرف بيت الجارة من بيتك، فحين تجلس عمّتي في باحة البيت الضيّق مهشّم الأرضية لتعدّ الخبز المنزلي، تزيح جارتها العجوز ستارةً مهترئةً، ويطلّ رأسها المُحاط بغطاء رأس أبيض، وترفع طرف ثوبها المطرّز لكي لا يصيبه بعض الماء المتجمّع في حفرة صنعتها الأرضية المهشّمة، وحيث تتجمّع فيها مياه المطر، أو مياه تنظيف البيت، وتسأل عمّتي عن بعض عروق الميرمية، فتشير عمّتي بذراعها التي علق بها العجين باتجاه مطبخ معتم صغير، فتدلف الجارة وكأنّ المطبخ يخصّها، فتتناول من رفّ على وشك السقوط أرضاً بعض الأعواد من علبة من الصفيح، ثم تخرج وهي تشكر عمّتي، وتخبرها ألّا تنسى أن تعرّج عليها للذهاب معاً إلى بيت عزاء جارهم الذي تُوفّي الليلة الماضية. في مخيّم جباليا، وحيث الأزقّة والسوق المزدحم، والمكتبة الوحيدة، والجدران التي كتبت عليها شعارات قديمة عن العودة، والشبّان الذين يتناثرون في قارعات الطرق الرئيسة القليلة التي تُفضي بك إلى أضيق الأماكن التي قد تتخيّل أنّ بشراً يعيشون فيها... في المخيّم تسمع أحدَ الشباب يترنّم بأغنية لمارسيل خليفة، فيما يمسك أحدهم كتاباً لأشعار محمود درويش، ويعلو صوته بمطلع من بيت شعر غزليّ حين تمرّ فتاة جميلة، ثمّ يكمل قراءة أبيات أخرى عن الوطن والخيبات العربية بعد أن تمرّ الفتاة، ويختفي ذيل فستانها الملوّن داخل زقاق ضيّق من تلك الأزقّة التي لم أدلفها وحدي أبداً، لأني كنت سأتوه قَطعاً، فكلّها يشبه بعضها بعضاً، ولكنّ ابنة عمّتي الشابّة كانت تمسك بذراعي، وتسير بي بينها لتحدّثني عن سكّان كلّ بيت نمرّ به، والذي تميّزه باسم ابنة جميلة على وشك أن تتزوج، أو ابن شاب يطارد الفتيات بكلمات غزليّة، فيما يتدلّى شعره الطويل مع شاربه، فيُخفيان ملامح وجهه، ويصبح الشباب كلّهم يشبه بعضهم بعضاً، ويتحوّلون بعد سنوات إلى شباب انتفاضة الحجارة، حيث اشتعلت الشرارة الأولى من المخيم الأسطوري، وليس لك أن تشعر بالعجب لذلك، ليس لك أن تتعجّب لأن اسم جباليا مشتقّ من الكلمة السريانيّة «جبالية» المأخوذة من جذر «جَبْلا»، وتعني الفَخّار والطّين، وكلاهما أصل الكون وبداية الحياة، وبداية الحكايات كلّها التي يُخلّدها التاريخ.

> اسم جباليا مشتقّ من «جبالية» السريانية، وتعني الفخار والطّين، أصل الكون وبداية الحياة

سعر النسخة: مصر **جنيهان**، تونس **900 مليم**، لبنان **1000 ليرة**، قطر **3 ريالات**، السعودية **3 ريالات**، الكويت **200 فلس**، الإمارات **3 دراهم**، عمان **300 بيزة**، البحرين **300 فلس**، الأردن **400 فلس**، العراق **500 دينار**، المغرب **4 دراهم**، الجزائر **ديناران**، اليمن **50 ريالاً**، سورية **25 ليرة**، السودان **10 جنيهات**، ليبيا **200 درهم**، موريتانيا **35 أوقية** ◻ UK **£ 1,50**, Austria **€ 2,50**, Belgium **€ 2,50**, France **€ 2,50**, Germany **€ 2,50**, Holland **€ 2,50**, Italy **€ 2,50**, Spain **€ 2,50**, Switzerland **CHF 3,50**
Turkey **TL 10,00**, USA **$ 2,00**